العنوان:	ابن حزم و أثره في المذهب الظاهري
المصدر:	هدي الإسلام
الناشر:	وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية
المؤلف الرئيسي:	عتر، نور الدين ضياء الدين
المجلد/العدد:	مج 39, ع 3,4
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1995
الصفحات:	27 - 34
رقم MD:	417316
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	ابن حزم ، علي بن أحمد ، ت 456هـ، المذهب الظاهري، التراجم، مؤلفات ابن حزم، المنهج العلمي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/417316

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

عتر، نور الدين ضياء الدين. (1995). ابن حزم و أثره في المذهب الظاهري.هدي الإسلام، مج 39, ع 3,4، 27 - 34. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/417316

إسلوب MLA

عتر، نور الدين ضياء الدين. "ابن حزم و أثره في المذهب الظاهري."هدي الإسلاممج 39, ع 3,4 (1995): 27 - 34. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/417316

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

ابن حزم
وأثره في المذهب الظاهري

الاستاذ الدكتور نور الدين عتر

هذا الموضوع قديم وحديث، قديم لتقدم عصر الشخصية التي نتحدث عنها، جديد لصلته الوثيقة بظاهرة معاصرة لنا الآن، عند جماعة من الناس تأثروا بمذهب ابن حزم وبمنهج الظاهرية، وستروا ذلك بادعاء العمل بالحديث واتباع السنة النبوية.

مؤسس المذهب داود الأصبهاني :

ولا بد لنا من القول : إن المذهب الظاهري متقدم على ابن حزم، فقد ظهر في القرن الثالث الهجري بواسطة صاحبه الذي اخترعه، ثم جاء بعده داعية قام بنشره والدعوة إليه، وصنّف فيه التآليف الكبار، والمختصرة الصغار، في أصول المذهب الظاهري وفروعه.

أما مؤسس المذهب الظاهري الذي سبق ابن حزم فهو المحدث الشيخ داود بن علي الأصبهاني، الفارسي الأصل، المتوفى سنة ٢٧٠هـ، وكان «بصيرا بالحديث صحيحه وسقيمه»، بدأ حياته شافعيا متمسكا بالمذهب الشافعي، ثم انقلب ظاهريا.

وكان داود أول من نادى بابطال القياس والاجتهاد بالرأي، وألف في ذلك كتاباً حافلا سماه «الإيضاح»، أودعه مسائل الفقه على وفق طريقته هذه!!.

لكن شذوذه البالغ في إبطال القياس والاجتهاد بالرأي، وما تفرع عليه من مسائل غير معقولة أثارت انتقاد العلماء والتحذير منه، فنفر منه الناس ولم يتابعوه، ولم يصلنا شيء من كتابه هذا.

أما داعية المذهب الظاهري بعد داود والمحامي عنه الذي أظهره ودعا إليه والف فيه الكتب فهو العلامة المحدث ابو محمد بن حزم الأندلسي.

وابن حزم هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الأصل، الأندلسي الموطن القرطبي الظاهري المذهب، كنيته أبو محمد، واشتهر بابن حزم نسبة الى جد أبيه حزم بن غالب.

ولد ابن حزم في قرطبة فجر الأربعاء آخر رمضان المبارك سنة ٣٨٤، في بيت عز وسيادة، وكان أبوه وزيراً للحاجب المنصور بن أبي عامر وأمه من أبناء كبار الوزراء.

وعندما ترعرع عهد به أبوه الى المربيات في القصر، فعلمنه القرآن، والشعر، والخط، وعرف الكثير من أحوال النساء وأخبارهن، وأحاطه والده بالعناية التامة فنشأ على العفة والاستقامة، وبعد أن تعلم الأشعار وحفظ القرآن عهد به الى من يعلمه ويربيه، وأولهم شيخه أبو علي الحسين بن علي الفارسي، قال ابن حزم: «فنفعني الله به كثيراً، وعلمتُ موْقِع الإساءة وقبح المعاصي».

ثم طلب الحديث فسمع شيوخ الحديث هناك وصاحب آبا عمر بن عبد البر حافظ المغرب، وسمع من يونس بن عبد الله بن مغيث قاضي الجماعة بقرطبة، ومحمد بن سعيد بن بنات وكان يفتي بالآثار، وعبد الله الأزدي المعروف بابن الفرضي، وكان حافظاً متقنا وقال ابن حزم : إنه طلب الحديث على سائر شيوخ المحدثين بقرطبة.

أما الفقه فقد تأخر طلبه له، وتفيد بعض الروايات أنه طلب الفقه وهو ابن ست وعشرين سنة، اي بعد بدء طلبه للحديث بعشر سنين، وفي هذا بعد، فالله أعلم بالحقيقة، غير أنهم مضوا على أنه كان شافعي المذهب في ابتداء أمره، بعد أن قرأ موطأ مالك، وناضل عن مذهب الشافعي وانحرف عن كل مذهب سواه، حتى وسم به ونسب إليه، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء، وعابوه بالشذوذ، وكان المذهب المالكي هو السائد في الأندلس، المعروف هناك.

لكن ابن حزم عدل في الآخر عن مذهب الشافعي إلى قول أصحاب الظاهر، أصحاب داود بن علي الأصبهاني، وثبت عليه وتهجم على من يخالفه الى أن مضى لسبيله رحمه الله تعالى.

قال الإمام الذهبي في سير اعلام النبلاء : «وكان قد اشتهر أولا في الأدب والأخبار والشعر وفي المنطق وأجزاء الفلسفة، فأثرت فيه تأثيراً ليته سلم من ذلك(١)، ولقد وقفت له على تآليف يحض فيه على الاعتناء بالمنطق ويقدمه على العلوم، فتألمت له، فإنه رأس في علوم الإسلام، متبحر في النقل، عديم النظير، على يبس فيه، وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول ...».

وقد تعرض ابن حزم في حياته لتقلبات، بزوال الوزارة عن والده، ثم تغير الأوضاع السياسية، حتى انتقل من القصر الفخم الى سكن عادي، وارتفع وصار وزيراً للمرتضى صاحب بلنسيه بالأندلس، وزال عنه العزّ بهزيمة المرتضى.

وقد أصابت ابن حزم مصائب وشدائد، بعضها لأسباب سياسية، وبعضها بسبب شذوذ مذهبه وشطط لسانه وقلمه وتطاولهما، فنفر منه الناس، وتصدوا للرد عليه، وقدم عليه في جزيرة ميورقة ـ معقله ومقره ـ الإمام المحدث الفقيه المالكي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، وناظره وأحرجه أمام الناس، وكان ذلك من سبب أنه انفض الناس عنه وأحرقوا كتبه.

قال القاضي عياض(٢) :

«ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه - أي علم ابن حزم - فقصرت السنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل، وحل بجزيرة ميورقة، فرأس فيها واتبعه أهلها، فلما قدم أبو الوليد - أي الباجي - كلموه في ذلك، فدخل الى ابن حزم وناظره، وشهر باطله، وله معه مجالس كثيرة».

وتنقل ابن حزم في بلاد الأندلس، حتى استقر التطواف به في قرية من بادية «لبله» حتى توفي فيها لليلتين بقيتا من شهر شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة، وكان عمره إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر ونيف، رحمه الله تعالى.

---

(١) وذلك لانه كان يؤول آيات الصفات ويفرط في التاويل، وكذلك كان داود الظاهري ايضا.

(٢) كما نقل عنه الذهبي وأقره، انظر سير اعلام النبلاء ١٨ : ٥٤٠، هذا وابن حزم تلميذ الباجي في الرواية، ذكره الذهبي في جملة تلامذة الباجي الذين حدثوا عنه، وذلك لغزارة علم الباجي رحمه الله ورحم ابن حزم وإيانا، وانظر المرجع السابق : ١٨ : ٥٣٧ .

مؤلفاتـــه :

أكثر ابن حزم من الاشتغال في العلم، والتصنيف في فنونه، رغم مشاغله ايام إقبال الدنيا عليه، ومصائبه ايام ادبارها عنه، مما يدل على موهبة فذة نادرة، وقدرة فائقة، عابها شذوذ مذهبه وجفاء أسلوبه، وقد ذكر الذين صنفوا في تراجم أعلام الرجال والمؤلفين(١) له نحو عشرين كتاباً من مؤلفاته ما بين مخطوط ومطبوع، لكنه قليل جداً إذا قيس بما قال ابنه : انه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد، تشتمل على نحو ثمانين الف ورقة، وقد عني بعض الباحثين بإحصاء مؤلفات ابن حزم فبلغ تعدادها عنده (١٣٦) ستة وثلاثين ومائة كتاب في مختلف العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتاريخ والشعر..

نذكر منها هنا هذه المهمات المطبوعة :

١ - المحلى في الفقه، مطبوع في ١١ جزءاً.
٢ - الإحكام في أصول الأحكام مطبوع في ٨ مجلدات.
٣ - إبطال القياس.
٤ - الفصل في الملل والأهواء والنحل.
٥ - الناسخ والمنسوخ.
٦ - حجة الوداع (غير كامل).
٧ - جوامع السيرة.
٨ - رسائل ابن حزم (مع جوامع السيرة).
٩ - طوق الحمامة في الإلفة والإلاف.
١٠ - ديوان شعر (مخطوط).

ثناء العلماء على ابن حزم :

أثنى العلماء على ابن حزم لسعة علمه وغزارة محفوظه وتنوع فنونه وتدينه وورعه، وإن تحفظوا على يبوسة تفكيره وفرط ظاهريته، كما رأينا في كلام الذهبي.

---

(١) كما في الأعلام للزركلي، ومعجم المؤلفين لكحالة.

وقال الامام ابو القاسم ساعد بن أحمد : «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار».

وقال ابو عبد الله الحميدي : «كان ابن حزم حافظا للحديث وفقهه مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علوم جمة، عاملا بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس، والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم».

منهج ابن حزم العلمي :

كان لابن حزم فضل كبير على المذهب الظاهري فقد بعثه من رقاده، وأحياه من مواته، عني ابن حزم بهذا المذهب فنقحه، وأوضح مناهجه وطرقه بعد ان كانت مبهمة غير معروفة، ووضع الكتب في هذا المذهب، في أصوله أي قواعده التي يعتمد عليها، «إحكام الأحكام في أصول الأحكام»، وفي فروع المذهب الظاهري، مثل كتابه الشهير «المحلى»، وكلاهما مرجع ضخم.

لكن ابن حزم لم يأخذ بطريق الموضوعية العلمية والأسلوب العلمي الذي درج عليه العلماء في الاستدلال لآرائهم، ونقد آراء غيرهم كما هو مسطر في مصادرنا العلمية على اختلاف اختصاصها، في قديم الزمان وحديثه، بل نحى في دروسه ومؤلفاته ايضاً منحى آخر مختلفا عن ذلك الأسلوب والمنهج، سلك سبيل الجفاء والبذاءة، مستخفا بالعلماء الكبار، غير مبال بائمة الاجتهاد والفقهاء المعتبرين في سائر الأمصار.

كان يقول عن الامام الشافعي : إنه يتقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم «اي يكذب». ويقول في مناقشة مذهب مالك في بعض مسائل النكاح : إنها شريعة كلاب، وهكذا حتى سموه «منجنيق العلماء»(١). وقالوا : «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان». وقد أثار هذا الأسلوب فضول العوام في اول الأمر،

---

(١) المنجنيق : آلة حربية تقذف بها على حصون العدو كتل الحجارة والصخور وكرات الحديد.

فالتفوا حوله واجتمعوا إليه، كما هو دأبهم مع أي شيء غريب أو شاذ، لكن العلماء أنكروا شذوذ مذهبه، وشنعوا عليه بذاء لسانه، فتمالؤوا على بغضه وردوا أقواله، وأجمعوا على تضليله، وحذروا سلاطينهم من فتنه، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه، والأخذ عنه، وطفق الملوك يقصونه ويسيرونه عن بلادهم الى أن انتهوا به منقطع أثره.

لكن أبا محمد بن حزم استمر سالكا طريقته، يبث علمه فيمن يقصده من الطلبة الذين لايخشون فيه الملامة، أشهرهم وأكثرهم عنه أخذاً : محمد بن ابي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي، وابنه الفضل أبو رافع، والوزير أبو محمد بن العربي.

قال الامام الذهبي(١) : «ولي أنا ميل الى ابي محمد لمحبته في الحديث الصحيح ومعرفته به» وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل، والمسائل البشعة في الأصول والفروع، وأقطع بخطئه في غير مسألة، ولكن لا أكفره ولا أضلله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين»(٢).

أساس المذهب الظاهري :

والأساس الذي يقوم عليه المذهب الظاهري في استنباط الأحكام : هو إبطال الاجتهاد بالرأي والقياس، والاقتصار على النص والاجماع، وفي هذا يقول داود الأصبهاني : « ولا يجوز أن يحرم النبي صلى الله عليه وسلم فيحرّم محرّم غير ما حرم، لأنه يشبهه، إلا أن يوقفنا النبي صلى الله عليه وسلم على علة من أجلها وقع التحريم، مثل أن يقول : حرمت الحنطة بالحنطة لأنها قليلة، واغسل هذا الثوب لأنه فيه دماء، أو اقتل هذا لأنه اسود، فيعلم بهذا أن الذي أوجب الحكم من أجله هو ما وقف عليه، وما جاوز ذلك فالتعبد فيه ظاهر، وما جاوز ذلك فمسكوت عنه، داخل في حكم ما عفي عنه».

أي أنه في هذه الحال لا يقيس، بل يعمم حكم الإباحة، مهما كانت الصلة بين المسألة المسكوت عنها والمسألة المنصوص على حكمها وثيقة!!.

ولا يتسع المجال هنا لمناقشة هذه الفكرة التي تضيق نطاق التشريع وتغير مجراه، فنكتفي بالبيان أن هذا المذهب مخالف لنصوص القرآن وللسنة القطعية والإجماع القطعي من الصحابة فمن بعدهم، فكل هذه الأدلة تثبت مشروعية

---

(١) سير اعلام النبلاء : ١٨ : ٢٠١ – ٢٠٢.

(٢) انظر ترجمة ابن حزم في المصادر التالية : جذوة المقتبس للحميدي : ٣٠٨ – ٣١١، ومعجم الأدباء لياقوت : ١٢ : ٢٣٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي : ٣ : ١١٤٦ – ١١٥٥ وسير اعلام النبلاء : ١٨ ١٨٤ – ٢١٢ ولسان الميزان لابن حجر : ٤ : ١٩٨ – ٢٠٢ .

القياس الصحيح ولزوم العمل به، والعمل بما توصل إليه اجتهاد الفقيه، سواء كان الحكم منصوص العلة أو غير منصوص العلة.

لكن حسبنا في هذا المقال دلالة على فساد هذا المذهب وبطلان أصله الذي قام عليه أن نذكر أمثلة مما تؤدي إليه قاعدته التي نوّهنا بها وعرفناها.

فمن ذلك :

مسألة البول في الماء الراكد، وفيها الحديث : «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه» اخرجه البخاري ونحوه عند مسلم(١).

فذهب الظاهريون وابن حزم الى إن البائل في الماء الراكد يحرم عليه وحده الاغتسال بذلك الماء والوضوء منه، سواء لصلاة فرض أو نفل لكن لا يحرم عليه ولا على غيره شربه إن لم يغير البول شيئاً من أوصاف الماء.

كذلك يحل على غير البائل في الماء الوضوء والاغتسال منه.

كما أنه يحل مطلقا إذا بال خارج الماء ثم وصل البول إليه!!.

وكذلك إذا تغوط في ماء جاز أن يتوضأ منه إذا لم يغير أحد أوصافه، لأنه تغوط ولم يبل!!(٢).

وهذا جمود شديد، لأنه لا شك أبداً في أن المقصود هو التنزه عن المستقذر، وهذا لا يختلف فيه البائل وغيره، ولا ما إذا بال في الماء مباشرة أو وصل البول الى الماء بأي طريقة أخرى.

قال الإمام ابن دقيق العيد(٣) : «ليس هذا من مجال الظنون، بل هو مقطوع به».

وقال الإمام النووي(٤) : «وهذا الذي ذهب إليه خلاف إجماع العلماء، وهو أقبح ما نقل عنه في الجمود على الظاهر».

ومن أمثلة ذلك حديث الرجل الذي يخدع في البيع، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «إذا بايعت فقل : لا خلابة» كما في الصحيحين (٥). وأعطاه حق الخيار بفسخ البيع.

---

(١) البخاري في الوضوء (باب الماء الدائم)، ج ١ ص ٥٣ طبعة بولاق سنة ١٣١٤، ومسلم في الطهارة ج ١ ص ١٦٢ طبع في استانبول، دار الطباعة العامرية.

(٢) المحلى لابن حزم، ج ١ ص ١٨١.

(٣) في كتابه القيم «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» ج ١ ص ٦٥.

(٤) شرح مسلم ، ج٣ ص ١٨٨.

(٥) البخاري (ما يكره من الخداع في البيع) ج ٣ ص ٦٥ ومسلم ج ٢ ص ١١.

والمراد أنه يشترط لنفسه حق فسخ العقد إذا ظهر له غبن في هذا البيع، فلو تلفظ بأي كلمة أخرى بالمعنى نفسه، مثل «لا غش» أو «لا خديعة» أو «لا خيانة» كان له ذلك الحق باتفاق العلماء.

وقال الظاهرية وابن حزم : «لو قال : لا خديعة، أو لا غش»، أو ما أشبه ذلك لم يكن له الخيار، حتى يقول : «لا خلابة»(١).

وهذا أيضا جمود شديد، لأنه لا يخفى على أحد أنه لم يقصد هذا اللفظ لذاته، إنما المقصود المعنى، فمتى حصل ذلك المعنى بأي لفظ كان حصل المقصود وثبت لقائل ذلك حق الفسخ.

ونختم بما نقل الذهبي عن ابن حزم من شعره في إبطال الرأي والقياس قوله :

أشهد الله والملائك أني ... لا أرى الرأي والمقاييس دينا

حاش لله أن أقول سوى ما ... جاء في النص والهدى مستبينا

قال الإمام الذهبي : فقلت مجيباً له :

لو سلمتم من العموم الذي ... نعلم قطعاً تخصيصه ويقينا

وترطبتم فكم قد يبستم ... لرأينا لكم شغوفاً مبينا

لقد كان لابن حزم أثره في نهضة الأندلس العلمية، بعد أن كانوا لا يعرفون الا مذهبا واحداً ومنهجا فقهيا واحداً، مما أتى ثماره اليانعة فيما بعد، على يد الإمام أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، ثم تلميذه الإمام أبي عبد الله محمد القرطبي، صاحب «الجامع لأحكام القرآن» فقد انطلقا في مؤلفاتهما في رحاب العلوم والمذاهب الاسلامية، وكذا غيرهما.

كما أن مذهب ابن حزم المتطرف جاء تجربة تعطي المسلم عبرة في الانحراف عن أصول أئمة الاسلام، وما يؤدي إليه من النتائج الخطيرة في تفكير الانسان، ونظام حياته، كما تعطي هذه التجربة زيادة تأييد لفقهنا الاسلامي الذي جاء متكاملا في نواظم علمية دقيقة، يحقق مصالح الأنام، ويلبي حاجة الانسان في كل زمان ومكان.

---

(١) المحلى، ج ٨ ص ٤٧٥.